الالتزام في الشعر العربي الحديث
عبد الوهاب البياتي أنموذجًا

الدكتور عمر حسن العامري

كلية القانون الكويتية العالمية الكويت

الملخص: يسعى هذا البحث إلى إلقاء الضوء على قضية "الالتزام" في الشعر العربي الحديث بحسبانها واحدةً من القضايا الكُبَر التي شغلت الفكر النقديّ الحديث؛ فهي من أبرز سمات الأدب الصادق اللصيق بالواقع المعيش، فضلًا عن كونها نمطًا من أنماط الرّد على قضية "الفنّ للفنّ" التي سعت إلى تخليص الأدب من الغائية والنفعية. ويتّخذ هذا البحث من الشاعر العراقيّ عبد الوهاب البياتي أنموذجًا لدراسة هذه القضية، لكونه واحدًا من أهمّ أعمدة المدرسة الواقعية، طفحت أشعاره بروح الثورة والتمرّد والرفض، متجاوزًا الحديث عن المعاناة الشخصية إلى الحديث عن الأنا الجمعية، وعن المأساة الإنسانية بتجلياتها المتنوّعة.

Summary:

This research seeks to shed light on the issue of "commitment" in modern Arabic poetry, as one of the great issues that occupied modern critical thought; it is one of the most prominent features of the true literature related to the living

reality, as well as a technique of responding to the "Art for art's sake" cause which seeks to rid literature of teleology and utilitarianism. This research examines the works of the Iraqi poet Abdul Wahab Al-Bayati as a model for studying this cause, as it is one of the most important pillars of the Realistic school. His poems were rife with the spirit of revolution, rebellion and rejection, going beyond the personal suffering to express the collective ego, and the humanitarian tragedy with its various manifestations.

المقدمة: بدأ الاتجاه الملتزم في الشعر العربي يشقّ طريقه بخطوات واثقة منذ خمسينيات القرن الماضي، وقد ساعدت عوامل عديدة في تبنّي هذا الاتجاه لدى عدد كبير من الشعراء، فكان لحركات التحرّر العربية، وظهور التيّار القومي، والصراع بين قطبي العالم المتمثلين بالاشتراكية والرأسمالية وانسحاب الفكر الاشتراكي في الواقعية الجديدة، كان لكلّ ذلك أثره في بروز هذا التيّار في الشعر العربي ليكون في الصف الأوّل في ذلك الوقت.

فما هو الالتزام؟ وما هدفه؟ وما هي ملامحه في الغرب؟ وكيف انسرب إلى شعرنا؟ وكيف تجلّى في شعر البياتي ليصبح رائد هذا التيّار في الشعر العربي؟

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن هذه الأسئلة مستندة إلى العديد من الدراسات التي تناولت الموضوع، والتي كان من أبرزها كتاب "الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث" لسلمى خضراء الجيوسي، وكتاب "النقد الأدبي

الحديث" لمحمد غنيمي هلال، وكتاب "تحوّلات مفهوم الالتزام في الأدب العربي الحديث" ليوسف إدريس وآخرين، وغيرها من الكتب التي تناولت موضوع الدراسة، فضلًا عن الأعمال الشعرية للشاعر عبد الوهاب البياتي.

وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة مباحث تسبقها المقدّمة وتليها الخاتمة، فكان المبحث الأوّل تحت عنوان: مفهوم الالتزام، حيث عرضنا بإيجاز إلى تعريف الالتزام من خلال الوقوف على أبرز ملامحه كما تجلّت في الغرب، عبر مدرستين كبيرتين هما الماركسية والوجودية، ومن ثمّ تجلية المفهوم في الأدب العربي، وبيان الهدف منه.

أمّا المبحث الثاني فقد جاء تحت عنوان: الالتزام في الأدب العربي، تتبّعنا فيه إرهاصات ظهور الالتزام في أدبنا، مشيرين إلى الأجواء العامّة عربيًا التي ساعدت على تبنّيه ونجاحه، وعرضنا إلى بعض الكتب وأبرز أعلامه في المشرق العربي تحديدًا.

أمّا المبحث الثالث فقد جاء تحت عنوان: الالتزام في شعر البياتي وهو دراسة تطبيقية استمدّت عناوينها من مادّة المبحثين السابقين، وآثرنا فيها أن نحدد مسارات الالتزام التي نريد بحثها في شعر البياتي، وارتأينا حصرها في ثلاثة عناوين هي: أنا الوطن، أنا القوم، أنا الإنسان.

وقد خُتمت الدراسة بعرض لأهمّ النتائج التي توصلت إليها، ومن ثمّ عرض لقائمة المصادر والمراجع.

وقد اتبعنا في المادّة النظرية المنهج التاريخي لتتبّع ظهور الالتزام وانتقاله إلى الأدب العربي، وفي المادّة التطبيقية قمنا باستقراء النصوص للوقوف على أمثلة تبيّن مظاهر الالتزام في شعر البياتي، ولكننا لم نعمد إلى دراسة تحليلية عميقة لأدواته وتقنياته في تبنّي ذلك التيّار، وهي تصلح أن تكون دراسة مستقلة.

المبحث الأول:

مفهوم الالتزام وأهدافه: الالتزام لغة: أن تلزم الشيء فلا تفارقه، وأن تداوم عليه فلا تتركه، واعتناق مبدأ ما والثبات عليه[1]، وهو في هذا الإطار يتفق إلى حدّ ما مع المعنى الاصطلاحي للكلّمة، فعلى الرغم من القلق الذي يعتري تعريفات المصطلحات الحديثة في الشعر والأدب – ولا سيما الوافد منها – إلاّ أنّ مفهوم الالتزام – وإن شابه بعض الاختلاف – يكاد ينحصر في أن يعدّ المبدعُ إبداعَه وسيلةً لخدمة فكرة معيّنة عن الإنسان، لا لمجرّد تسلية غرضها الوحيد المتعة والجمال[2].

وفي هذا التعريف الذي تتقاطع معه تعريفات كثيرة يصبح الشعر وسيلة لا غاية، فهو أداة لخدمة الفكرة، والفكرة منوطة بموقف تجاه الآخر عموماً، وهذا الموقف لا ينبع من الإحساس بالمتعة والجمال، وإنما من الاحساس بالهمّ العامّ، الذي يصل إلى درجة نكران الذات؛ بل وذوبأنّها في الهمّ الاجتماعي والسياسي والوطني عموماً؛ ومن هنا فقد جاء الالتزام ليقف أمام الذين ينادون بفكرة الغاية الجمالية للشعر، وأنصار مدرسة الفنّ للفن.

ومن هنا كان الالتزام مشاركة للناس في قضاياهم المختلفة، يقوم، في الدرجة، الأوّلى على الموقف الذي يتّخذه المفكّر أو الأديب أو الفنّان فيها. وهذا الموقف يقتضي صراحة ووضوحاً وإخلاصاً وصدقاً واستعداداً من المفكّر لأن يحافظ على التزامه دائماً[3].

ويصبح الأديب بهذا ذا وظيفة اجتماعية محضة؛ وذلك في تبنّيه مفاهيم المواطنة والاستعمار والحرية والتخلف والتطوير؛ بحيث تتلاشى (أنا) الشاعر لتندغم في (أنا) القوم، (أنا) الوطن، (أنا) الإنسان... فعلى الكاتب أن "يشعر بمدى مسؤوليته، وهو مسؤول عن كلّ شيء، عن الحروب الخاسرة أو الرابحة، عن التحرّر والقمع، إنّه متواطئ مع المضطهدين"[4].

ويهدف الالتزام إلى ربط الشعر بالواقع، وإخراجه من ذلك البرج العاجي الذي بناه له دعاة الفنّ للفنّ، منطلقاً من أنّ الأديب جزءٌ من مجتمعه، وأنّ شعره يجب أن يكون الذائد والمنافح عن هذا المجتمع؛ بل إنّ الكلّمة يجب أن تقوم بدور البندقية، ويجب أن يكون صاحبها محارباً فعلاً فهو ملتزم بفكره وعمله، وهو في ذلك "يبحث عن الخلاص الروحي والإنساني لعصره، والمخلّص الذي كان ينتظره يظهر على شكلّ نبيّ أو ثائر أو شاعر، والذي يحاول من خلال وسائله أن يغيّر الحياة لكي يضيف إليها أشياء جديدة من غير أن يدع الفرصة للموت أو العدم أو الخراب لكي يعود ويهدّم ما بناه الإنسان"[5].

ويتبدّى هدف الالتزام أيضاً من خلال المكانة التي يريدها الشاعر لنفسه من حيث وظيفته الشعرية، فعلى الشعر أن يعود "إلى وظيفته الحقيقية كعنصر ثوري خلاق، وإنّ هذه الرؤية الجديدة التي غطّت الخارطة البيضاء التي كان يقف عليها الشاعر، عادت لتؤكّد قيمة الإنسان – الشاعر خالقاً وثورياً وسيداً لمصيره، لقد اتحد الرمز الذاتي بالرمز الجماعي"[6].

المبحث الثاني:

الالتزام في الأدب العربي: بتأثير الواقعية الجديدة في فرنسا في العامّ 1935م، ظهرت الدعوة إلى الالتزام في الأدب عموماً، وفي الشعر خصوصاً، فالواقعية ترى وجوب التزام الشاعر والثائر معا[7].

وكان لانعكاس الوجودية وأفكار سارتر حول دور الأديب أثرهما الكبير في تبنّي الالتزام عند كثير من العرب الذين شغفوا بآرائه، ويبدو أنّ الواقعية الاشتراكية والماركسيين العرب وآراء سارتر في ضرورة وجود وظيفة محدّدة للأدب، فضلا عن ما شهدته البشرية عموماً في أواسط القرن الماضي من انحسار للاستعمار، وتثوير للشعوب ووقوف العربي على مفترق طرق؛ كلّ ذلك كان إرهاصاً لظهور الالتزام في الأدب العربي، كما كان لاتحاد القوميين العرب والاشتراكيين دور كبير في بلورة إطار عامّ للأدب الملتزم يقف وجهاً إلى وجه أمام دعاة الفنّ للفنّ[8].

ويبدو أنّ كتاب سارتر " ما الأدب" الذي تُرجم إلى العربية كان المنعطف الحقيقي في مسار الشعر في هذا الاتجاه[9]، فقد توالت بعده المقالات والدراسات وكان لمجلّتي " الآداب والشعر" البيروتيتين دور كبير في تبنّي الفكر الملتزم ونشره[10]. ومع تناغم الالتزام مع الروح القومية والوطنية التي أخذت تنتاب الوطن العربي عموما، أصبح هناك ضرورة لأن يكون الشعر العربي "عاملا وفعالا، شعر وكالة أو شعر إنابة، شعرا يعتمد على حقل كبير من المشتركات الظاهرة والباطنة التي تجمعه وشعبه، ويكتفي بأن يتوسل بها إلى غايات أبعد منها، والشاعر في هذه الحالة يكون دائما مسكوناً بقداسة واضحة، يتقدّم ليقود جماعة، هو طليعتها، وهو حارس الأزمنة، وهو في كلّ صورة من صوره محض رسول، هو المتّصل بها المنفصل عنها، وهو الوكيل الدائم عندما يحب وعندما يناضل"[11]. وتساوق ذلك مع ظهور عدد من الكتّاب والنقّاد العرب الذين أسهموا في نشر الفكر الالتزامي، ففي مصر كان الكاتب الاشتراكي سلامة موسى أوّل من نادى بأن يكون الأدب من الشعب للشعب، وتبنى مسألة الاتصال الجماهيري[12]، وفي أواسط الخمسينات كذلك نُشر كتاب تحت عنوان "في الثقافة المصرية" يدور حول معنى الواقعية الاجتماعية لكاتبين مصريين هما محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس[13]؛ في حين نشر شحادة الخوري كتاباً مهمّاً في الموضوع في سوريا، تحت عنوان "الأدب في الميدان" دافع فيه عن مبادئ الأدب الملتزم النابع من النظرية الماركسية[14]، وأمّا لبنان فكانت منبراً رئيسا

لهذا الأدب إذ كان للكاتب رئيف خوري أثر كبير في نشر أفكار الالتزام في تلك الفترة[15]، كما كان لمجلّتي الآداب والشعر – كما أسلفنا – دور في تجذير هذا التيّار في الأدب العربي.

أمّا في العراق فقد ظهرت مجموعات شعرية لشعراء اشتراكيين، تبنّوا فكرة الالتزام، وكان لهم حضور شعري كبير على الساحتين العربية والدولية أمثال بدر شاكر السياب وكاظم جواد وعبد الوهاب البياتي[16]، والأخير هو المجال التطبيقي لهذه الدراسة.

المبحث الثالث

الالتزام في شعر البياتي: كثيرون هم الذين تبنوا الواقعية الاشتراكية في الأدب العربي الحديث، وكثيرون هم الذين انطلقوا من ضرورة أن يكون للأدب عموماً وللشعر خصوصاً دور وظيفي منوط بالهمّ الجمعي والقضايا العامّة، ويبقى الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي من "أهمّ من يمثّل الواقعية المحدثة في العراق، وربّما في الوطن العربي، لأنّه بدأ بنشر مجموعات شعرية تكشف عن الالتزام بهذه الفكرة"[17].

وإذا كان الشعر الملتزم شعراً ثائراً بطبيعته، يسعى إلى هدم الطواغيت، وبناء المدينة الفاضلة، التي يتساوى فيها البشر ولا يستبعد بعضهم بعضاً، فإنّ الشاعر "لا يرتبط بثورة عصره وبلاده فقط، وإنما بثورات كلّ العصور وكلّ البلدان، لأن روح

الثورة تحلّ في الحياة، وتنتصر على الموت، وتحلّ في الأشياء فتمنحها الحياة"[18].

ومن جهة الهمّ العامّ فقد كان البياتي من أبرز الشعراء الذين وظفوا شعرهم لخدمة الوطن والقوم والإنسانية، فقد وظف شعره لخدمة "العشاق والفقراء والعمال والثوّار، يداوي فيهم أوجاع العذاب بشتم واستصغار واحتقار التنابلة وكلاب الصيد وصيّادي الذئاب وسارقي أسلاب الضحايا ساعة الإعدام وماسحي أحذية الملوك والمهرّجين مزوّري الأفكار وشهود الزور"[19].

وقد انطبع شعر البياتي بطابع الالتزام بدءاً من مجموعته الصادرة في منتصف القرن الماضي تحت عنوان " أباريق مهشمة" وامتد هذا الطابع عبر مجموعات شعرية متعددة كان آخرها " نصوص شرقية" الذي كان خاتمة عطائه إذ نشر قبل رحيله في العالم 1999.

وفي مجموعاته الشعرية وسيرته النثرية حمل البياتي "حزن الإنسان العربي والعراقي القديم والمعاصر وإنسانيته وخوفه من المدينة ومذلاتها، ممّا جعله يعيش على مرّ حياته إحساساً فاجعاً بالظلم والطغيان والقهر والاستلاب والعذاب والجوع والموت المجاني الذي يلف أبناء وطنه وأمته في كلّ العصور والأزمان، مدافعاً عنهم، شاهراً سلاحه المرئي بوجه السلطان الجائر، والحاكم الطاغية، ناثراً حروف كلّماته وأشعاره على وجوه الفقراء والمضطهدين في كلّ مكان والتي لوّنها بلون الإنسانية"[20].

وسنقف في هذا المبحث على ثلاثة محاور في شعر البياتي، لنستجلي ملامح الالتزام فيها، وهي: أنا الوطن، أنا القوم، أنا الإنسان.

أنا الوطن: الانتماء للوطن بقُراه ومدنه وشجره وحجره وتاريخه ومستقبله هو أحد أهمّ ملامح تيار الالتزام في شعرنا العربي، فالشاعر المنتمي مرتبط بالمكان يحمله معه في حلّه وترحاله، ويعيش فيه حتى وهو بعيد عنه في منفاه، والبياتي أحبّ العراق، وحمله في قلبه وعقله إلى منافيه المتعددة، فها هو يرى البصرة ببساطة أهلها، تسطّر البطولات، وتحقّق الانتصارات، وهي ذات طابع عربي بقي ثابت الملامح في كلّ العصور، فهي مدينة الشعراء والعلماء:

كانت كعادة أهلها البسطاء

تجترح البطولة والفداء

تستقطر التاريخ معجزة

وشارات انتصار

وبوجهها العربي

في كلّ العصور

- مدينة الشعراء والعلماء - [21]

إنّ مدينة الشعراء والعلماء هذه، حملت العلم كما حملت السلاح، ودافعت عن الفكر كما دافعت عن أرضها، فهي تقاوم الغزاة بنخيلها وشطها وأبطالها:

قاومت الغزاة

وبأكرم الشجر النخيل

وشطّها

كانت إلى الشهداء في معراجهم

زاد المعاد:

الشعر سرّ شبابها

وبطولة البشر / البناة[22]

ومن البصرة إلى بابل، إذ يكشف توظيف هذه المدينة كرمز مكاني "خيبة الأمل المريرة التي أحسها الشاعر بسبب تعثر الأمّة، وفشل نهضتها، إذ تمثّل بابل بديلًا موضوعيًا للأمّة في حاضرها، ويجسّد من خلالها معاناة الإنسان الذي ينتظر الخير والتغيير"[23] فبابل دحرت الغزاة قديمًا، ولكنّها الآن جريحة مصابة، يقول في قصيدة العودة من بابل:

من ههنا الإسكندر الكبير

مرّ على جواده منهزمًا محمومْ

أيتها النجومْ

بابل تحت خيمة الليل إلى الأبد

تعوي على أطلالها الذئابْ

ويملأ الترابْ

عيونها الفارغة الحزينة

بابل تحت قدم الزمانْ

تنتظر البعث، فيا عشتارْ

قومي، املئي الجرارْ[24]

هكذا كان التحوّل في مكانة بابل، فبعد أن هزمت الإسكندر الكبير أصبحت أطلالًا خربة تحيط بها الذئاب، ويملأ التراب عيونها، فهي مدفونة بانتظار البعث، والبعث لا يكون إلاّ منها ذاتها ليتمثل بعشتار.

والمعنى ذاته في قصيدة تحت عنوان "الرؤيا الثالثة"، يقول فيها:

أرى بعين الغيب نيسابورْ

تحوم حول رأسها النسورْ

يسلخ جلدها وتشوى حيّة في النار

أرى الثعابين على الأسوار[25]

فهذه الرؤيا تبيّن أنّ نيسابور جثة هامدة والنسور تنهشها، ويسلخ جلدها، لتشوى وهي حيّة في النار في حين ترقبها الثعابين على الأسوار، أنّها مأساة وطن يعيشها الشاعر، ويألم لمصابها، ويشعر بمسؤولية تجاهها، ولكن رؤيته لبغداد مختلفة فهو يراها باقية تتوهج كالشمس، وتتجدّد كالنبع، وأزلية كالنّار في ظلّ رؤية كونية لطفولة شاعر:

بغداد

مهما طال حوار الأبعاد

فستبقى بغداد

شمسًا تتوهج

نبعًا يتجدد

نارًا أزلية

رؤيا كونية

لطفولة شاعر[26].

وهو وإن رأى بغداد المنبع الأوّل كما في القصيدة، إلاّ أنّ موقفه تجاه المدينة عمومًا كان صارمًا، فقد اكتشف زيفها منذ وطئتها قدماه، وعاش صراعًا بين الفكرة التي كانت في مخيلته عنها والواقع الذي يراها عليه. يقول في ذلك: "أما أعماق المدينة الحقيقية التي عاشت قرونًا عديدة على ضفاف "دجلة" وولدت وعاصرت حضارات عظيمة فقد شعرت بأنّها ماتت واختفت إلى الأبد ولم أكنْ أرجو لها العودة، وإنّما رجوت لها امتدادًا كامتداد النهر الذي ينبع ويجري إلى البحر الكبير يعانقه ويذوب فيه، من هنا كانت الثورة على المدينة رفضاً لشكلّها القائم، ولم يكن رفضاً عاطفياً، وإنما كان بذرة لتمرّد هو الذي ولد الثورة"[27].

والرفض، هنا، ليس وليد كراهية، وإنما هو حالة من الحُبّ الأصيل لعراقة قضت تحت وطأة الحداثة، وحقيقة دُفنت تحت

بهارج الشّكلّ، وهو في كلّ ذلك يسعى جاهداً إلى التغيير الحقيقي، تغيير المظهر والمحتوى، لذا فإن الثورة التي هي فاتحة التغيير تنبع من داخله المتمرد...حيث يسقط شهيداً عدة مرات في وطنه الذي يحب:

أرض تدور في الفراغ .. ودم يراق

ويُحي على العراق

تحت سماءِ صيفهِ الحمراء

من قبل ألفِ سنة يرتفع البكاء

حزناً على شهيد كربلاء

ولم يزل على الفرات دمه المراق

يصبغ وجه الماء والنخيل في المساء [28] .

أنا القوم

عاصر الشعر العربي الحديث حركات التحرّر العربية، كما عايش العديد من الثورات التي أطاحت بعدد من الأنظمة تحت شعارات تصب في معظمها في البعد القومي، ورفع الراية العربية، وانتشال الأمّة من براثن الرجعية والتخلف والتبعية، لتصبح أمّة ذات كيان وقوّة، تحتل مكانّها بين الأمم، وتعيد لنفسها مكانتها المستلبة .

ونحن إذ ندرس "علاقة الشعر المعاصر بالثورة: ماركسية كانت أو سريالية أو وجودية أو قومية أو غير ذلك فإننا نلمح في هذا الشعر – رغم التفاوت في تقييمه – انفتاحاً كبيراً على

مشكلّات الإنسان، وقدرة على تفجير الوعي الداخلي عند الشعوب العربية "[29].

والبياتي الشاعر الذي عانى من القهر والتعسف في وطنه، وآثر المنفي غير مرة، كان من أبرز الشعراء الذين حملوا وطنهم في وجدانهم، وانتموا لأمتهم الكبيرة، ولقومهم، وإن جاروا عليهم.

من هنا كان البياتي أحد الذين حملوا راية الاتجاه الثوري في شعرهم، فاتخذ هذا الشعر " بعدا واضحا في وقوفه عند عدد من القضايا الجماعية"[30] ووجد نفسه يتابع الأحداث العربية، بل ويكون في شعره فاعلاً فيها، فكان مثالاً لأنا القوم، وجمع بين القومية والاشتراكية، واندمج " ضمن قوى لعله أصبح يعتقد أنّها تعمل على تغيير المجتمع، فوجد نفسه مدفوعاً إلى ملاحقة الأحداث والتعبير السريع عن تقلبات الواقع"[31].

وسنقف هنا على قصيدة تحت عنوان " إلى عبد الناصر الإنسان" لنبين جوانب الالتزام القومي لديه من خلالها :

يحيلنا عنوان القصيدة إلى تعلّق معظم العرب بعبد الناصر، فقد رأوا فيه مخلّصاً ومنقذاً وثائراً على زمر الظلم والفساد، فهو زعيم وقائد ثوري يريد أن يخلص الأمّة من هزائمها وعارها كما يرى البياتي، وهو في الوقت ذاته إنسان، ولا يقصد هنا إخراجه من القومية إلى الإنسانية، وإنّما يقصد بهذا الوصف إخراجه من الصفات غير الإنسانية؛ أي صفات الطغاة الذين

استعبدوا أقوامهم، وجرّعوهم الويلات، ويسبغ عليه صفة الإنسانية كروح في التعامل مع القوم والدّفاع عنهم:

أيا جيل الهزيمة ... هذه الثورة

ستمحو عاركم وتزحزح الصخرة

وتنزع عنكم القشرة

وتفتح في قفار حياتكم زهرة

وتنبت، أيها الجوف الصغار برأسكم فكرة[32] .

ففي هذه الأسطر يخاطب الشاعر جيل الهزيمة، وهو الجيل الذي يعي ما خلفته النكبة من كوارث على الأمّة، والهزيمة تقتضي العار، وتغلف أصحابها بقشرة الخوف والجبن والذل، وتجعل حياتهم قفراً لا حياة فيها، وفي المقابل فإن الثورة ستمحو هذا العار، وتحيل الهزيمة نصراً، وتنزع قشرة الذل والخوف تلك، وتعيد بجمالياتها المادية "زهرة" والمعنوية "فكرة".

إنّ هذه الفكرة التي ستنبت في الرؤوس سيغسل بريقها ولمعأنّها هذه الوجوه الملطخة بالعار والذل، وسيحيل النظرة المنكسرة والحسرة القاتلة جسوراً للعبور من جديد، قناديل لتنير الدرب، وزهوراً تبعث الأمل، ومناديل تلوح بالفرح، فيندثر الحزن، ويشع الشعب بالفرح:

سيغسل برقها هذي الوجه وهذه النظرة

ستصبح هذه الحسرة

جسوراً وقناديل

زهوراً ومناديل

ويصبح باطل الحزن أباطيل

وتزهر في فم الشعب المواويل [33] .

والشاعر إذ يقرّع جيله في البداية، فإن ذلك التقريع لا يعني الانبتار عنه، وإنما التقريع لأجل الاستثارة والتحميس، وتلمس الجرح، لذا فهو يستنهض الجيل عبر هذه الثورة:

ستهوي تحت أقدامك، يا جيلي التماثيل

وتسقط عن رؤوس السادة التيجان

كأوراق الخريف ستسقط التيجان

وتجرفها رياح الكادحين لهوة النسيان

فهذا البرق لا يكذب

وهذا النهر لا ينضب[34]

إذاً، فرياح التغيير قادمة، والكادحون هم الذين يعوّل عليهم في التغيير، وبريق الثورة ليس خلّباً، كما أن نهر العطاء المتمثل بهذه الأمّة لا ينضب، وإن شابه بعض الركود.

والكادحون والفلاحون هم قوام الثورة ووقودها، وهم المنطلق الأساس الذي تنطلق منه فكرتا الالتزام والاشتراكية؛ لذا فإنّ هذا الفلاح هو الثوري الذي سيهزّ سلاسل الريح بسنابل القمح ليغيّر وجه التاريخ فاتحاً الباب للربيع:

وهذا الثائر الإنسان عبر سنابل القمح

يهزّ سلاسل الريح

مع المطر

مع التاريخ والقدر

ويفتح للربيع الباب[35]

والشاعر يختم قصيدته بطلبه من الشعراء مباشرة أن يكونوا ملتزمين، أن يلتزموا بالثورة، وأن يوجّهوا قصائدهم للكادح، للثورة، لرمزها عبد الناصر:

فيا شعراء فجر الثورة المنجاب

قصائدكم له، لتكن بلا حُجّاب

فهذا المارد الثائر إنسان

يزحزح صخرة التاريخ، يوقد شمعة في الليل للإنسان[36]

إنّنا، ونحن نقرأ هذه القصيدة، نجدها تمثل أبرز ملامح تيار الالتزام، فالشاعر هنا منتمٍ إلى أمّته، مدافع عن فقرائها وكادحيها وعمّالها، مستنكر هزائمها، ودافع باتجاه الثورة والوقوف إلى جانب المخلص، الذي سيعيد لها عزّها وكرامتها، وهو إضافة إلى ذلك يوجه دعوة للشعراء للوقوف في الصف الملتزم، وهذا الصف هو عروبي بامتياز... فبعد مجيء عبد الناصر، أخذ العرب يحلمون بمحو النكبة، وإعادة الأرض المستلبة، ووحدة الأمّة... ورأوا في عبد الناصر رمزاً واقعياً لذلك الحلم... ولكن شاعرنا، هنا، لم يشر إلى عبد الناصر إلاّ

في العنوان... كما أنّه لم يشر إليه مباشرة، فالثائر والفلاح والكادح هي رموز للعربي عموماً، وإن كانت تحتمل الدلالة على زعيم الثورة الذي يمثّل طبقة العمال والكادحين.

لذا؛ فإنّنا نعتقد " أنّ البياتي يكتب شعراً يمكن وصفه بأنه يتخطّى الحدود؛ لأنّه يتمثل من جهة في التراث الشرقي أي في هذه المسيرة الطويلة المرهقة، والمبهرة، والمحزنة في الوقت نفسه، لذلك الماضي الذي يتعمق في أرضه العربية وفي جذور شعبه، وهو من جهة أخرى يتطلع إلى حاضره، يتطلع إلى الخصائص الرئيسية للحظة العربية الراهنة، التي تبدو في أزمة؛ لأنّها تمرّ في الأقل بوقت حرج، ومن جهة ثالثة فإنّ البياتي يتطلع إلى المصير الجماعي للشعب العربي وينفعل به "[37] ولهذا فإن البياتي يبدو منخرطاً في قضايا أمته، منشغلاً في همومها متحسراً على مجدها الزائل، ومتألماً لحاضرها المرّ، وباحثاً لها عن مستقبل أفضل.

" والبياتي المرتدي أقنعة الشرق وأنواره لا يمكن التعرّف إليه إلاّ من خلال معرفة الجوّالين والمغامرين وملتقطي الحكمة وجامعي القصص والباحثين عن الأسرار ومدوّني أوصاف المدّ وحركة العالم"[38].

أنا الإنسان

إنّ التزام البياتي بقضايا وطنه وأمته لم يبعده عن الالتزام بالقضايا الإنسانية عموماً، وهي قضايا – كما أسلفنا – تبنتها الاشتراكية، كما تبنتها الوجودية، والبياتي أدرك منذ البداية

أنّه إنسان منتمٍ إلى البشرية ومحكوم "بمدى قدرته على أداء وظيفة اجتماعية إنسانية جمالة ليبرر بها الوجود والكيان، ويدلّ بها على أنه كائن نافع جميل لا استغناء عنه"[39]. وهو في الوقت نفسه مدافع منافح عن إنسانيته، بل ويدعو الشعراء إلى الكفاح العامّ لخلاص الإنسانية:

قامت مدن / بشروط الفنّ / يكافح فيها

الشعراء

من أجل خلاص الإنسان[40].

إنّ الظلم والجبروت والطغيان والتجرد من القيم الذي تشهده الإنسانية، يتطلب من الشاعر أن يكون طبيباً يضمّد الجراح، ونبيًا يعالج الأرواح، وهو وإن كان ابن بيئته ووطنه وقومه إلا أنّه يبقى إنسانًا، يعايش هموم الكادحين في كلّ مكان، بل إنه يرى نفسه في الآخرين، ويندمج في مآسيهم لينظر في داخله فيلمس مأساته:

وصاح في غرناطة

معلّم الصبيانْ

لوركا يموت، ماتْ

أعدمه الفاشست في الليل على الفراتْ

ومزّقوا جثته، وسمّلوا العينينْ

لوركا بلا يدينْ

يبثّ نجواه إلى العنقاءْ
والنورِ والتراب والهواءْ
وقطراتِ الماءْ [41]

وهو إذ يتماهى مع لوركا لا ينسى غيره من رموز العالم المكافحين الكادحين الثائرين، فهو يعد جيفارا رمز الأمل "الوحيد الباقي لكادحي ومثقفي العالم المضطهدين والمظلومين"[42] ففي قصيدة تحت عنوان "عن الموت والثورة" يهديها لجيفارا، نجده يحمل الهمّ الإنساني، خارج إطار بغداد ونيسابور والبصرة، وخارج الإطار العربي، ليتماهى مع شخصيات عالمية ومدن غربية، ولكنه يتماهى معها ليرى فيها نفسه ووطنه وقومه وإنسانيته:

كان مغنّي "قرطبة"
ملطخًا بالدم فوق العربة
تبكيه جنّيّات بحر الروم[43].

ويبدو – وهو مسافر دائمًا خارج الحدود – باحثًا في منافيه عن نفسه، وعن إنسانيته، باحثًا عن معانٍ تفسّر له غربة الإنسان عمومًا في العالم، فضلًا عن غربة الفقر والمنفي الذي يرى فيه ثلاثة مفاهيم: أوّلها أن يموت الإنسان وحيدًا عاجزًا يواجه محنة وجوده، وثانيها: أن يترك جائعًا محرومًا عاريًا، والأخير هو إبعاد الإنسان عن وطنه [44].

يقول في قصيدة تحت عنوان "**شتاء في باريس**":

باريس في الشتاءْ

تدثرت بالثلج والفراءْ

فما لقلبي ظلّ في العراءْ

يبكي كعصفور على الأرصفة البيضاءْ،

يبكي، نوافذ البيوت نورت

وأقبل المساءْ

كمثل آلاف الأماسي

باردًا

يبكي.. بلا عزاءْ

باريس شاختْ

وأنا مازلت طفلا

حرْفتي التّجوال والغناءْ

حانات ليل العالم الطويل

والثلج الذي تغمره الكآبة الخرساءْ[45]

باريس المنفي هنا، ليست تلك المدينة التي يقصدها الناس للسياحة، وليست تلك المدينة التي تعجّ أرصفتها بالمارّة وساحاتها بالزوار، باريس تلك هي ذات المدينة المادّية الباردة المجرّدة من النبض والدفء، وهي المدينة الخالية من الإحساس بالآخَر، فهي في الطقس البارد جدًا تتدثر بالفراء، وتأوي إلى

فراشها الوثير ليلًا، وتترك الأنوار تنبعث من نوافذها... في حين يبقى قلب الشاعر، قلب الغريب، العصفور الباكي على الأرصفة البيضاء في الليلة الظلماء دون دثار، بل يبقى عاريًا، باردًا، باكيًا، يجوب الأرصفة..

ويمكن لنا أن نقرأ بعض مقاطع القصيدة أفقيا أو عموديا، لنلحظ المفارقة بين القلب- العصفور- الطفل، وباريس والثلج، والفراء:

باريس

تدثرت

فما لقلبي

يبكي

وإذ تشيخ باريس، يتبدى الشاعر طفلًا، ولكنّه يحترف المنافي، ويتّخذ من الأرصفة والحانات سبيلًا، ليمتد ليلة السرمدي في الشتاءات القارسة، ليكون الثلج، الذي كثيراً ما تبارى الشعراء في وصف جماله، مادّة كئيبة تخلو من الحياة.

والمدينة سواء أكانت نيويورك أم باريس أم برلين أم قرطبة لا يكون الإنسان فيها إلاّ أسرابا من النمل تسعى لملء خزائنها بالأطعمة "وفي مدن النمل التي تحكمها الأرقام والبنوك إشارة صريحة إلى الرأسمالية الأوروبية، النظام الذي أوقف البياتي شعرَه على هدمه... والنظام الذي بعث الخيام ورآه لما أقرّه.. نظام "مدائن النمل التي تحكمها الأرقام والبنوك،

والنمل إشارة إلى انسحاق وضآلة البشر تحت وطأة أقدام سلطة لأرقام البنوك..."[46]

وإذا كانت المدينة تمثّل جانبًا من جوانب الالتزام والذوبان في الهمّ الاجتماعي؛ فإنّ البياتي وظّف تقنية القناع توظيفًا كبيرًا لمعالجة الجانب الإنساني، ومهما كان انتماء أقنعته وقومياتها إلّا أنّها حملت لديه أبعادًا إنسانية، فاستخدم الأشخاص كالمعرّي والحلاج والخيّام والإسكندر المقدوني وجيفارا وبيكاسو والبيركامو وغيرهم، واستخدم المدن كإرم وبابل ومدريد وغرناطة، واستخدم الكتب مثل ألف ليلة وليلة، وكلّها كانت للوقوف على الهمّ الجمعي للبشرية بما تمثله تلك الأقنعة من عذابات يتوحد فيها الخاص مع العام[47].

ففي محاكمة الحلاج يقول:

الفقراء إخوتي

يبكون، فاستيقظت مذعوراً على وقع خطا الزّمانْ

ولم أجدْ إلا شهود الزّور والسلطانْ

حولي يحومون وحولي يرقصون: أنّها وليمة الشيطانْ

بين الذئاب، ها أنا عريانْ

قتلتني

هجرتني

نسيتني

حكمت بالموت عليّ قبل ألف عامْ

وها أنا أنامْ

منتظراً فجر خلاصي، ساعة الإعدامْ[48].

فالحلاج هنا رمز إنساني وإن استمدّه من تراثنا العربي، والسلطان هنا طاغية على مستوى البشرية، لا على مستوى قُطري فحسب.

"فالبياتي هنا يثير قضية محاكمة الحلاج وفقراء المدينة يبكون عليه جزعاً، وشهود الزور يبيعون الذمّة ويتجاهلون الوجدان، ويخدمون باسم الله أعداء الله، وتنتهي المحاكمة"[49] بصَلْب الحلاج.

والسلطان هو السلطان في أي زمان أو مكان، وضفادعه الواشيات تبقى تقرقر لتغوير صدره على الفقراء والكادحين، من هنا فهو يتوحد مع قمر المعرّة، طالبًا من كلّماته المخضّبة بالدم، أن تُسكِت تلك الضفادع:

فاستيقظي يا صخرة في الصدر، يا رمحًا بلا سنانْ

يا كلّماتٍ خُضِّبَت بالدم، يا ناراً بلا دخانْ

ولتسكتي ضفادع السلطانْ[50].

وإذا كان البياتي قد استبطن نفسه في المعرّي، فقد "استبطن نفسه في الحلاج وفي الخيام: صديقًا لكلّ العشاق المساكين، ولكلّ الفقراء أصدقاء الجمال في حانة الأقدار: ها هو سرّ أسرار خلود البياتي في الصف الأوّل من صفوف الشعراء"[51].

الخاتمة

خلصت هذه الدّراسة إلى أن الشّعر العربي استقبل أفكار الالتزام وتجاوب معها منذ أواسط خمسينيات القرن الماضي، وتناغم معها في كثير من أفكاره؛ بل إنّ كثيراً منه اندغم في هذا الفكر، وأصبح الالتزام سمةً لأدبه وشعره، وأصبح عند العربي مقروناً بمفهوم الانتماء إلى الوطن والقوم والإنسانية.

فأمّا الوطن؛ فقد كانت البلدان العربية خارجة من مرحلة الاستعمار المباشر أو تكاد، وكانت تسعى إلى إعادة بناء ذاتها والتحاقها بركب الحضارة، وأمّا القوم فكانت فكرة القومية العربية تذرع الألسنة من المحيط إلى المحيط، وكانت الدعوات إلى إقامة الوحدة، والتعاون لإيجاد قوة عربية وأمّه ذات سيادة ومنعة قد انطلقت من كلّ الأرجاء، وأمّا الالتزام بالقيم الإنسانية فقد اتخذ أشكالًا متعددةً أبرزها الحاجة إلى الحرية والانعتاق من الطغيان والعبودية.

ولمّا كان الشعر ديوان العرب، وصوتهم المنبثق من أعماقهم فقد كان له أثر كبير في نشر مبادئ الالتزام، فوقف الشعراء منافحين عن أوطانهم وأمتهم، باحثين عن القيم الإنسانية في عالم أصبح الاستبداد سمته، وكان الشاعر عبد الوهاب البياتي قطباً من أقطاب الالتزام في شعرنا العربي الحديث، وقد تبدلت ملامح الالتزام في شعره ونثره فكان يحمل فكراً ملتزماً استمده من الاشتراكية الواقعية، ومن النهج الماركسي والفلسفة الوجودية، وكانت دواوينه الشعرية تعجّ بقصائد تبدأ من أنا

العراق المحمول في داخل الشاعر حيثمّا حلّ أو ارتحل، ومن أنا العرب بتاريخهم المشترك وواقعهم المرير ووحدة أهدافهم، لتصل إلى أنا الإنسان بكلّ ما تحتملهُ الإنسانية من قيم تسعى إلى الحرية والعدالة والمساواة.

المراجع:

1. أبو أحمد، حامد، عبد الوهاب البياتي في إسبانيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1991م.
2. إدريس، سهيل وآخرون، تحوّلات مفهوم الالتزام في الأدب العربي الحديث، دار الفكر، دمشق، 2003.
3. البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995م.
4. ----------، تجربتي الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1993م.
5. أبو حاقة، أحمد، الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979.
6. الجيزاني، زاهر، عبد الوهاب البياتي في مرآة الشرق / الحداثة والشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997م.
7. الجيوسي، سلمى خضراء، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001م.

8. الرواشدة، سامح، شعر عبد الوهاب البياتي والتراث، وزارة الثقافة، عمان، 1996م.

9. سارتر، جان بول، الأدب الملتزم، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت ط2، 1967م.

10. صالح، مدني، هذا هو البياتي، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، 1986.

11. صبحي، محيي الدين، الرؤيا في شعر البياتي، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1986م.

12. عباس، إحسان، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنّون والآداب، الكويت، 1978.

13. عباس، محمود جابر، الشاعر عبد الوهاب البياتي، من مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني إلى مرقد الشيخ محيي الدين بن عربي، دار الكرمل للنشر والتوزيع، عمان، 2001م.

14. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط5، 1956.

15. هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1997م.

16. وهبة، مجدي، معجم مصطلحات الأدب، مطبعة دار القلم، بيروت، 1974م.

الهوامش:

1 ابن منظور، محمد بن مكرم لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط5،1956،ج12،ص541،542.

2 وهبة مجدي، معجم مصطلحات الأدب مطبعة دار القلم، بيروت، 1974،ص79

3 أبو حاقة، أحمد، الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص14.

4 سارتر، جان بول، الأدب الملتزم، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، بيروت، ط2، 1967، ص44.

5 عباس، محمود جابر، الشاعر عبد الوهاب البياتي، دار الكرمل، عمان،2001م، ص25.

6 البياتي، عبد الوهاب، تجربتي الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1993م ص42.

7 انظر : هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، 1997م، ص484-485.

8 انظر : الجيوسي، سلمى خضراء، الاتجاهات والحركات فى الشعر العربي الحديث، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001م، ص624.

9 برادة، محمد : تحولات مفهوم الالتزام في الأدب العربي الحديث، سهيل إدريس وآخرون، دار الفكر، دمشق، 2003، ص 8

10الجيوسي، سلمى خضراء، الاتجاهات والحركات فى الشعر العربي الحديث، ص 621

11 رمضان، عبد المنعم: "في مواجهة أيامنا" تحولات مفهوم الالتزام في الأدب العربي الحديث، سهيل إدريس وآخرون، ص122-123.

12 الجيوسي، سلمى خضراء، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص617.

13 نفسه: ص622.

14 نفسه، ص620.

15 نفسه: ص618.

16 نفسه، ص621.

17 نفسه، ص621.

18 البياني، عبد الوهاب، تجربتي الشعرية، ص69.

19 صالح، مدني، هذا هو البياتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،1986، ص231.

20 عباس، محمود جابر، الشاعر عبد الوهاب البياتي، ص81.

21 البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995، ح2، ص506.

22 نفسه، ص507.

23 الرواشدة، سامح، شعر عبد الوهاب البياتي والتراث، وزارة الثقافة، عمان، 1996، ص133.

24 البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995، ج2، ص77.

25 البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، ج2، ص75.

26 نقسه، ص482.

27 البياتي، عبد الوهاب، تجربتي الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1993، ص19-20 .

28 البياتي، عبد الوهاب الأعمال الشعرية، ج2، ص135

29 عباس' إحسان، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،1978،ص 60

30 صبحي، محيي الدين، الرؤيا في شعر البياتي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1986، ص120

31 نفسه ص 75

32 البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، ج2، ص7

33 البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، ج3، ص7

34 نفسه، ص7

35 البياتي، عبد الوهاب الأعمال الشعرية، ج2، ص7-8

36 نفسه ص 8

37 أبو احمد، حامد، عبد الوهاب البياتي في إسبانيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1991، ص14 والكلام من كلمة ألقاها الأديب الاسباني انطونيو جالا في اسبانيا عام 1983.

38 الجيزاوي، زاهر، عبد الوهاب البياتي في مرآة الشرق: الحداثة والشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1997، ص39-40

39 صالح، مدني، هذا هو البياتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986، ص8.

40. البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، ج2، ص556.

41 البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، ج2، ص134.

42 البياتي، عبد الوهاب، تجربتي الشعرية، ص39.

43 البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، ج2، ص152.

44 انظر البياتي، عبد الوهاب، تجربتي الشعرية، ص28.

45 البياتي، عبد الوهاب الأعمال الشعرية،ج1، ص473

46. صالح، مدني، هذا هو البياتي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص87.

47 انظر: البياتي، عبد الوهاب، تجربتي الشعرية، ص41؛ عباس، محمود جابر، الشاعر عبد الوهاب البياتي، ص67.

48 البياتي، الأعمال الشعرية، ج2، ص15-16.

49 مدني، صالح، هذا هو البياتي، ص45.

50 البياتي، عبد الوهاب، الأعمال الشعرية، ج2، ص33.

51 مدني، صالح، هذا هو البياتي، ص8.